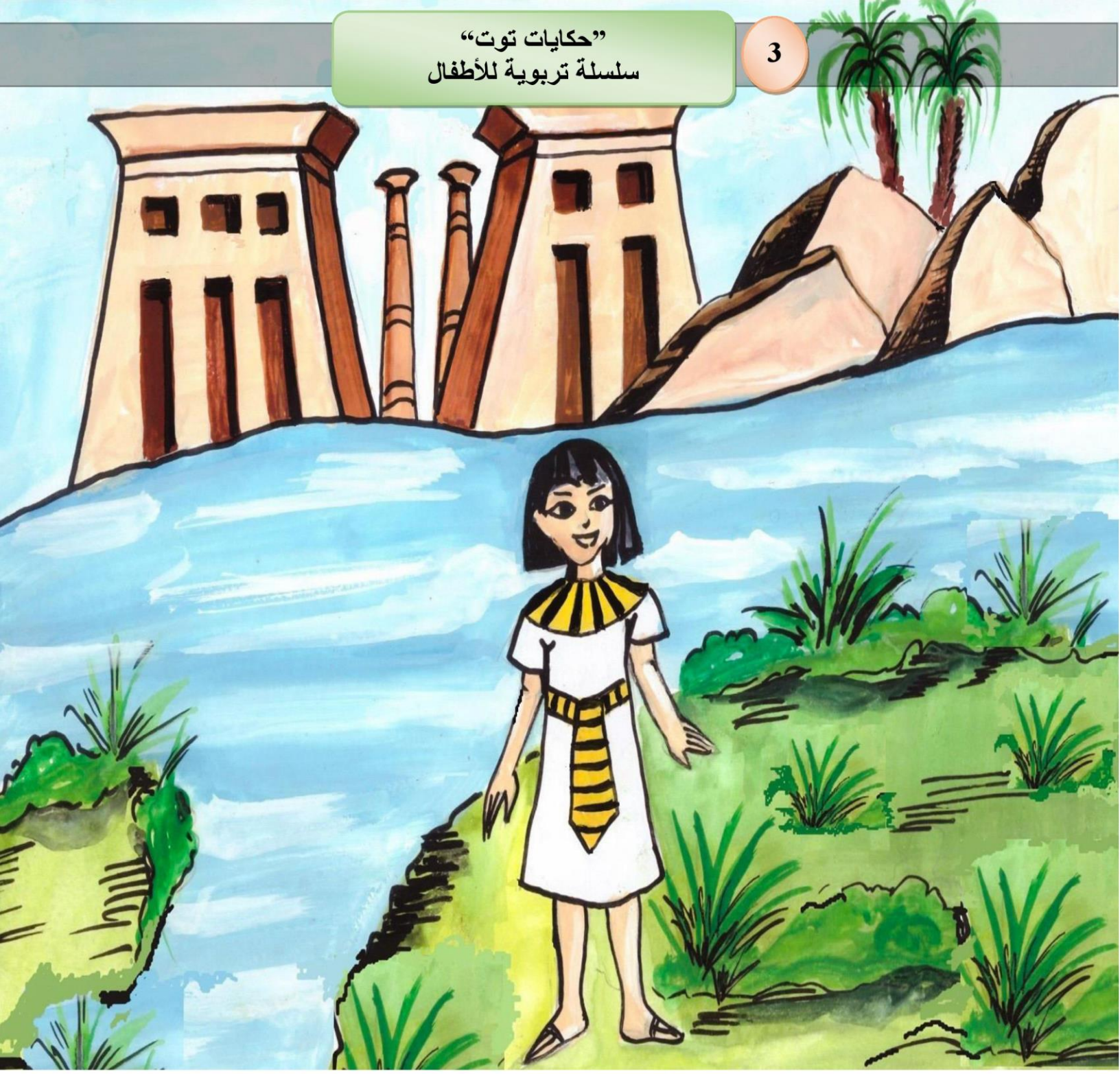

توت والماء الصافي

د. محمد أبو الخير

توت والماء الصافي

د. محمد أبو الخير

قصة من وحي الكاتب الكبير عبد التواب يوسف

رقم الإيداع: 29998- 2021
الترقيم الدولي: 978-977-94-0631-2

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من المؤلف.

فِي مَدِينَةِ الْأُقْصُرِ وَبِجِوَارِ مَعْبَدِ الْكرَنْكِ عَلَى ضِفَافِ النَّيْلِ يَعِيشُ تُوتُ مَعَ أُسْرَتِهِ.

تُوتٌ طِفْلٌ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ ذُو وَجْهِ صَبُوحٍ، دَائِمًا عَلَيْهِ اِبْتِسَامَةً مُشْرِقَةً، وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُسَاعِدَ وَالِدِيّهِ فِي أَعْمَالِ الْمَنْزِلِ وَالْحَقْلِ. تُوتٌ أَيْضًا مَحْبُوبٌ مِنْ زُملَائِه فِي الْمَدْرَسَةِ لِتَفَوُّقِهِ فِي الدِّرَاسَةِ.

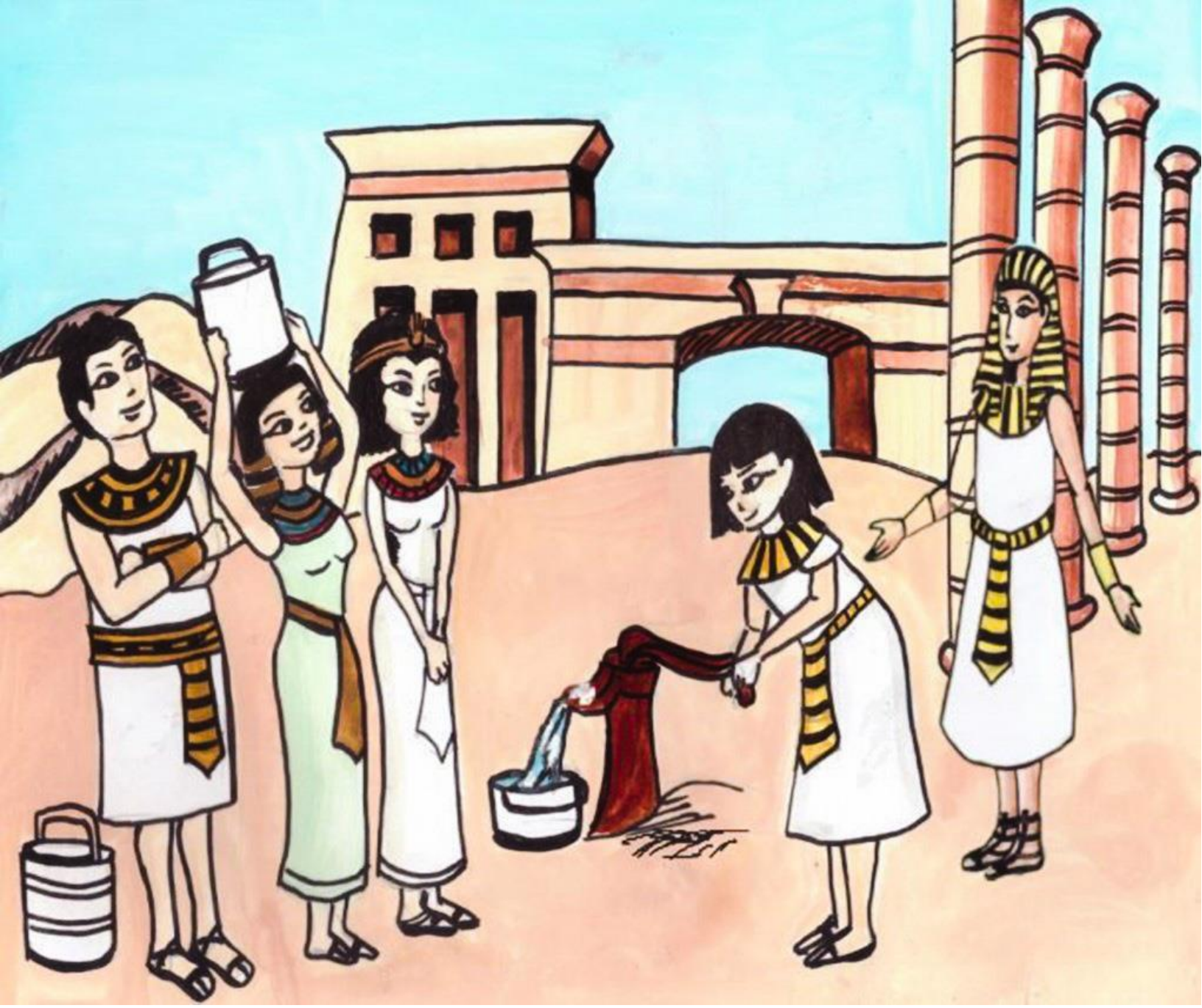

فِي مَنْزِلِ تُوتٍ، يُوجِدُ طُرُمبَةً تَضُخُ الْمَاءَ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ إِلَى أَعْلَى. إِنَّ مَاءَ الطُّرُمبَةِ عَذْبٌ وَنَقِّى، لِهَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْهُ. سُنُوهِى وَالِدُ تُوتٍ رَجُلٌ يَتَّصِفُ بِالْكَرَمِ وَذُو هَمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَيُحِبُّ أَنْ يَسْعَى لِلنَّاسِ فِي قَضَاءِ مَصَالِحِهِمْ. لِذَلِكَ يَأْتِي الْجِيرَانُ لِأَخْذِ الْمَاءِ مِنْ مَنْزِلِهِ، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ، وَلَا يُرِيدُ مُقَابِلًا لِذَلِكَ.

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، بَيْنَمَا تُوتٌ عَائِدٌ مِنَ الْمَدْرَسَةِ إِلَى بَيْتِهِ، وَجَدَ أَبَاهُ فِي اِنْتِظَارِهِ. أَخْبَرَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى مَدِينَةِ أبيدوس لِيَشْتَرِيَ حَاجِيَّاتٍ إِلَى الْبَيْتِ مِثْلَ: الْأَوَانِيَ النُّحَاسِيَّةَ، وَالسَّجَّادَ، وَالْعُطُورَ، وَالْمَلَابِسَ الْقُطْنِيَّةَ.

قَالَ تُوتٌ: تَذْهَبَ وَتَعُودَ فِي سَلَامٍ يَا أَبَى.

قَالَ سُنُوهِى: لَا تَنْسَ يَا تُوتُ أَنْ تَسْقَى الْمَاءَ لِلنَّاسِ مِنْ طُرُمْبَةِ بَيْتِنَا.

قَالَ تُوتٌ: سَوْفَ أَقُومُ بِذَلِكَ يَا أَبَى.

جَهَّزَ سُنُوهِى الْعَرَبَةَ، وَصَنْعَ وَجْبَةً لَذِيذَةً لِلْحِصَانِ حَتَّى يَقْدِرَ عَلَى طُولِ الْمَسَافَةِ لِلْمَدِينَةِ.

يَحْتَرِمُ سُنُوهِى حِصَانَهُ وَيُحِبُّهُ وَيَعْطِفُ عَلَيْهِ. وَضَعَ سُنُوهِى الْحِصَانَ أَمَامَ الْعَرَبَةِ.

رَكَضَ الْحِصَانُ بِخِفَّةٍ وَنَشَاطٍ إِلَى جِوَارِ شَاطِئِ النِّيْلِ. كَانَ الْجَوُّ جَمِيلًا مُنْعِشًا، وَالنَّغْمَاتِ الْمُوسِيقِيَّةِ يَعْلُو صَوْتُهَا مِنْ خُطُوَاتِ حَرَكَاتِ أَرْجُلِ الْحِصَانِ عَلَى الْأَرْضِ.

جَالَتْ فِي رَأْسِ تُوتِ فِكْرَةٌ، وَهِي أَنْ يَمْنَعَ الْمَاءَ عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ.

إِنَّهُ يَخْشَى أَنْ يَجِفَ الْمَاءُ فِي الْبِئْرِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ يَصْنَعُونَ لَهُ إِزْعَاجَاً عَنْدَمَا يَحْضُرُونَ إِلَى الْبَيْتِ، وحينما يَنْصَرِفُونَ مِنْهُ.

قَالَتِ السَّيِّدَةُ ميريت: مِنْ فَضْلِكَ يَا تُوتِ، أُرِيدُ مَاءَا نَظِيفَا لِكَيْ أَطْهُوَّ الطَعَامَ لِصَغَارِيَّ، لَقَدْ وَعْدَتُهُمْ بِشُرْبَةِ بَطَّةٍ لَذِيذَةٍ.

قَالَ تُوتُ: لَقَدْ أَخَذْتُم الْكَثِيرَ مِنَ الْمَاءِ، اِبْحَثُوا عَنْ مَكَانِ آخِرِ.

أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَحْتَفِظَ بِالْمَاءِ لِنَفْسِي وَعَائِلَتِي.

قَالَتْ شيروت: الْمِيَاهُ غَيْرَ النَّظِيفَةِ تُهَدِّدُ حَيَاتَنَا بِالْأَمْرَاضِ، نُرِيدُ أَنْ نَشْرَبَ مَاءَاً نَظِيفَاً، وَعَلَيْكَ أَنْ تُعْطِيَنَا الْمَاءَ يَا تُوتُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ وَالِدُكَ.

أَصَرَّ تُوتٌ عَلَى مَوْقِفِهِ، وَلَمْ يَسْمَعْ لِجِيرَانِهِ الْمُحْتَاجِينَ لِلْمَاءِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَنْصَرِفُوا.

فَجْأَةً، حينما ذَهَبَ تُوتُ إِلَى مَزْرَعَتِهِ، وَجَدَ الْأَرْضَ جَرْدَاءَ وَمُشَقَّقَةً وَعَطْشَى. حَزِنَ تُوتُ حُزْنَاً شَدِيدَاً لِمَا شَاهَدَهُ.

تَعَجَّبَ تُوتُ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ، وَتَسْأَلَ كَيْفَ تُصْبِحُ الْأَرْضُ هَكَذَا، وَهِيَ بِجِوَارِ النِّيْلِ؟

مَاذَا حَدَثَ؟

يَعْرِفُ أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَنَّ السَّيِّدَ سُنُوهِى شَخْصِيَّةً مُحِبَّةً لِلنَّاسِ، لِأَنَّهُ يُوفِى بِالْوَعْدِ، وَيُغِيثُ الْمَلْهُوفَ، وَكَرِيمَ الْعَطَاءِ، وَقَدْرَ اِسْتِطَاعَتِهِ يُيَسِّرَ الْحَاجَّاتِ لِلْمُحْتَاجِينَ حَتَّى لَقَبَهُ النَّاسُ بِأَبِي فَرَاجٍ.

بَيْنَمَا كَانَ سُنُوهِى عَائِدًا مِنَ السَّفَرِ بِعَرَبَتِهِ، شَكَيَ لَهُ أَهْلُ الْقَرْيَةِ بِمَا فَعَلَهُ اِبْنُهُ تُوتٌ بِمَنْعِ الْمَاءَ عَنْهُمْ. وَأَخْبَرُوهُ بِمَا أَلَمَ بِهِم مِنْ تَعَبٍ وَكَرْبٍ وَحَزْنٍ لِعَدَمِ حُصُولِهِمْ عَلَى الْمَاءِ الصافي مِنْ بَيْتِهِ.

سُنُوهِى: لِمَاذَا مَنَعْتَ الْمَاءَ عَنِ النَّاسِ يَا تُوتُ؟

تُوتُ: أَرَدْتُ يَا أَبَى أَنْ أُحَافِظَ عَلَيْهِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْفَدَ. كَمَا أَنَّنَا لَا نَسْتَفِيدُ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الْمَاءَ النَّقِيَّ مِنْ أَرْضِنَا.

سَنُوهَى: لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ تَرْبَحَ مِنْ عطَائِك، يَجِبُ أَنْ تُرَاجِعَ نَفْسَكَ يَا تُوتُ، لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ رَحْمَةً عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، وَعَلَيْكَ أَنَّ تُصَحِّحَ هَذَا الْخَطَأَ الَّذِي فَعَلَتَهُ. إِنَّ الْمُحَافَظَةَ عَلَى الْمَاءِ يَكُونُ بِالْعَطَاءِ وَلَيْسَ بِالْمَنْعِ.

إِنَّ الْعَطَاءَ قِيمَةٌ عَظِيمَةٌ لَا تُوصَف، وَقِيمَتُهَا أَنَّهَا عَطَاءٌ مِنْ أَجْلِ جِيرَانِنَا، وَأَيْضًا مَنْ أَجَلِ الْإِنْسَانَ.

فَكَرَ تُوتُ فِي الْكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ وَالِدُهُ، وَفَهِمَ الْهَدَفَ مِنْهُ فِي مُسَاعَدَةِ الآخرين.

وَفِى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، حِينَما حَضَرَ الْجِيرَانُ إِلَى مَنْزِلِ تُوتٍ، عَلَى الْفَوْرِ رَحَّبَ بِهِم، وَبِنَشَاطٍ ضَخَّ لَهُم الْمَاءَ مِنَ الطُّرُمْبَةِ.

قَالَتْ شيروت: مِنْ فَضْلِكَ يَا تُوتُ اِسْقِ الْعِطَاشَ تَكَرُّمًا.

قَالَ تُوتُ: بَلْ هُوَ وَاجِبٌ، وَأَهْلًا بِكُمْ دَائِمًا.

قَالَ أَنُوبُو: لَقَدْ كُنَّا فِي كَرْبٍ وَحَزْنٍ شَدِيدٍ، لَا تَمنَعْ خَيْرَاً يَا تُوتُ عَلَى مَنْ يَطْلُبُ.

قَالَ تُوتُ: مَعْذِرَةٌ يَا سَيِّدِي عَمَّا فَعَلَتْ، وَأَعِدُكَ لَنْ يَتَكَرَّرَ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى.

مَلَأَ الْجِيرَانُ الْمَاءَ فِي سَعَادَةٍ، وَوَجَّهُوا الشُّكْرَ لِتُوتٍ. عَمَّتِ الْفَرَحَةُ أَهَالِيَّ الْقَرْيَةَ لِحُصُولِهِمْ عَلَى الْمَاءِ الصافي.

ذَهَبُ تُوتُ إِلَى الْمَزْرَعَةِ فَشَاهَدَ مَنْظَرَاً جَمِيلَاً حَيْثُ الْأَرَضَ خَضْرَاءَ مُورِقَةً.

أَدْرَكَ تُوتُ كَيْفَ عَادَ الْخَيْرُ إِلَى الْأَرْضِ وَأَزْهَرَتْ مَرَّةً أُخْرَى، عِنْدَمَا أَعْطَى الْمَاءَ لِلنَّاسِ.

تَعَلَّمَ تُوتُ كَيْفَ تَكُونُ الْمُعَامِلَةُ مَعَ الْجِيرَانِ، وَأَهْلِ الْقَرْيَةِ وَالنَّاسِ، وَهِيَ أَلَا يَمْنَعَ خَيْرَاً عَنْهُمْ.

هُنَا تَأَكَّدَ تُوتُ مِنْ صِدْقِ كَلَامِ وَالِدِهِ الْقَيِّمِ " الْإِنْسَانُ الَّذِي يُعْطِي سَوْفَ يَنْعَمُ فِي حَيَاتِهِ بِالْخَيْرِ وَالسُّرُورِ وَالسَّعَادَةِ".